

(النفاق والمنافقين)

(الشيخ محمد ندا)

"الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه، ونسأله التوبة والمغفرة. ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير. وأشهد أن سيدنا وحبينا محمداً رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير... اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه وساروا على منهاجه فكانوا هم الفائزين."

فقد تحدثنا في جمعة سابقة عن المنافقين وأن لهم صفات وأحوالاً متعددة ومتنوعة، ومنها أنهم يتملقون الأقوياء ويذاهنون أهل الوجاهة والسلطان. وبسبب ذلك، فإنه لما ظهرت قوة المسلمين بعد غزوة بدر، ظهر النفاق لينافقوا رسول الله وينافقوا المؤمنين، وأنهم بذلك أظهروا الإسلام بالسنتهم، أما قلوبهم فملئية بالكفر والشقاق. وقد صور القرآن هذا وكشف النقاب عن فضائحتهم وكشف المستور من خصالهم الخسيسة، فقال تعالى في سورة البقرة: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ). وهذا يدل على أنهم جبناء، ليست عندهم شجاعة المؤمنين ولا صراحة الكافرين.

المؤمنون شجعان حينما أعلنوا تمسكهم بالحق الذي رأوه، والكافرون كذلك عندهم شجاعة وعندهم صراحة في مواجهة الإيمان بكفرهم الصريح، أما المنافقون فإنهم يداورون ويناورون مخافة أن يؤخذوا بأعمالهم وذلك للجن الذي استولى على قلوبهم. لذلك فإنهم تظاهروا بهذا الإسلام وأبطنوا الكفر في قلوبهم. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى كشفهم وبين أنهم يظنون أنهم أذكى وأهم بمهارتهم قادرون على أن يخدعوا المؤمنين بهذا الظاهر، بل ظنوا أكثر من ذلك وهو أنهم قادرون على أن يخدعوا الله الخبير سبحانه وتعالى. وما دروا، لغفلتهم، أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، وأن الله تعالى لا يُخدع، وأن المؤمنين كذلك في كنف الله عز وجل فيحميزهم من هذا الخداع: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). يغشونها ويخدعونها، ويظنون أنهم يخدعون الله ويخدعون المؤمنين. لكن ما هو السبب أو السر في هذه المحاولة المكشوفة الخاسرة؟ ما الذي حملهم على ذلك؟

إن سر ذلك راجع إلى آفة في نفوسهم وعلة في قلوبهم تجعلهم يحيدون عن الطريق المستقيم. وهذه العلة، كلما لم تعالج، فإنها تزداد بمرور الأيام حدة. فالمرض ينشئ المرض، والعلة تزيد كلما أهملت في العلاج. كما أن المريض بمرض بدني إذا أهمل نفسه في العلاج، فإن مرضه يتفاقم حتى قد يأتي على الجسد كله في يوم من الأيام، فيصاب بالهلاك والدمار. كذلك المرض المعنوي المرض الأدبي الذي يصيب القلوب في صميمها، كلما ترك، يزداد حدة، كما قال تعالى: **(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا)**. وهذا لابد أن يؤدي بهم إلى الهاوية السحيقة: **(ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)**. وهنا نقف على السبب الأساسي الذي أودى بهؤلاء أو بهذا الصنف من الناس، وهو الكذب. ذلك أن الكذب لا يمكن أن يجتمع مع الإيمان في قلب إنسان واحد. فالكذب أكبر الآفات التي تولد النفاق، ولذلك سئل النبي صلى الله عليه وسلم: 'أ يكون المؤمن بخيلاً يا رسول الله؟' قال: 'نعم'. قيل: 'أ يكون المؤمن كذاباً يا رسول الله؟' قال: 'لا'. فالإيمان لا يجتمع مع الكذب أبداً، فإما كذب وإما إيمان، لأن الكذب هو أساس النفاق: **(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)**، وهذا الصنف من الناس لديه مهارة كبيرة في الخداع والتمويه والغش. يصور نفسه أمامك وكأنه خلاصة من الخير والطهر، ومن الحب والعفاف والوئام، وكأنه أيضاً خلاصة من البر والإصلاح في هذه الأرض. يتحدث إليك فيعجبك حديثه، وتعجبك فصاحته وزلاقة لسانه ونبرة صوته. له كلام معسول يستطيع أن يجذبك إليه، فتندفع بهذا الحديث. يعجبك كل ذلك وهو يتحدث عن أعماله وعن إرادته للخير بالناس، وعن الطهر والبر، وهو أبعد ما يكون عن البر والخير والصلاح. ولذلك يكشفهم الله تعالى مرة أخرى فيقول: **(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه)**.

لماذا يشهد الله؟ إن إحساسه بأن الناس لا يصدقونه وأنه مكشوف الجانب وعورته لا يمكن أن تُخفى عن الناس، لذلك يحاول أن يستر هذا كله بإشهاد الله تعالى على ما في قلبه. يشهد الله زيادة في التأثير والإيحاء بأنه لا يبغي إلا الخير للناس، وإلا الطهر، وإلا الصلاح، وهو أبعد ما يكون عن هذا كله. نفسه مليئة بالحق، مليئة بالدنس. **(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام)** شديد اللدد، شديد الخصومة. نفسه مليئة بالبغي، ومليئة بالفساد، ومليئة بالحق على الآخرين. ولذلك، لما كان هذا قولاً من فمه، فإن هذا يظهر عندما يُدعى إلى العمل. عندما يُدعى إلى العمل، عندئذ ينكشف المستور، ويظهر المخبوء: **(وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)**.

فهكذا يكون هؤلاء الناس، وفي أمثالهم يقول الله تعالى مرة أخرى: **(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن**

الله عليم بما يصنعون). إنه دائماً، كما قلت، يتحدث عن الصلاح ويتحدث كذلك عن الإصلاح، وإنه كذلك يتناول على الناس: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) إدعاء وسفه وغرور وحماقة. (إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون). من الطبيعي أن ينفي أي إنسان تهمة الفساد والإفساد عن نفسه... كل إنسان يحاول أن يبعد عن نفسه شبهة الفساد والإفساد في الأرض، لكن أن يدعي المفسد أنه هو المصلح دون غيره من الناس فتلك الطامة الكبرى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون). ولو أننا فتشنا في جميع المجتمعات البشرية لوجدنا الذين يفسدون في الأرض شر الفساد يفسدون في الأرض ولا يصلحون. لوجدنا أمثال هؤلاء كثيرين جداً في كل مجتمع من المجتمعات يدعون أنهم يصلحون وهم المفسدون حقاً. ترى ذلك في كثير من أوجه الحياة أمامك، فمثلاً نرى كثيراً من الناس يتظاهرون بأنهم مصلحون وهم المفسدون. نرى كثيراً من الناس من يتاجر باسم الإسلام ليطعن الإسلام في صميمه. أمثال الكتاب الذين يروجون لهم في أجهزة الإعلام المختلفة بأنهم كتاب إسلاميون أو مفكرون إسلاميون أو أنهم دعاة أو أنهم أرباب الدعوة وحدهم من دون الناس، وهم يدسون السم في العسل. يتظاهرون بذلك كله ويتظاهرون بأنهم يدافعون عن الإسلام وهم في الوقت ذاته يطعنونه في الصميم... نجد منهم الكتاب والصحفيين والإذاعيين والفنانين وغير هؤلاء كثيرين. نجدهم موجودين في كل منطقة من مناطق الحياة أو في كل جانب من جوانب الحياة، سواء كان جانباً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً. ونرى كذلك أو رأينا بالفعل من تاجر ومن يتاجر باسم قضية من القضايا كقضية الحق وقضية الحرية وقضية العدل. ينادون ويتاجرون بهذا وهم أول من يزهقون الحق وأول من يعادون الحرية وأول من يشيعون الظلم في العالم، وهم يشيعون عن أنفسهم أنهم يرفعون لواء الحق والعدل والمساواة والحرية والإخاء إلى غير ذلك. إنه النفاق وإنه المتاجرة باسم تلك القضايا، كما وجدنا كثيرين أيضاً تاجروا باسم القضية الفلسطينية وأنهم يسعون لتحرير فلسطين من هؤلاء الأعداء... من أول ما نشأت القضية الفلسطينية إلى يومنا هذا.

ونجد المتاجرين كثيراً باسم هذه القضية. وعلى سبيل المثال، وجدنا من سعى أو كان يسعى أو كان يدعو إلى تحرير فلسطين، وبدل أن يذهب إلى فلسطين ليحررها، ذهب إلى اليمن ليضربها ويقول إن تحرير فلسطين يبدأ من اليمن. أما كيف يبدأ من اليمن فلا ندري كيف يكون ذلك، إنما هو المتاجرة باسم القضية. ووجدنا كذلك في الثمانينيات من زعم أنه سيحرر فلسطين وأنه سيحرق دولة إسرائيل، وبدل أن يقدم على تحرير فلسطين، فإنه أقدم على حرق دولة الكويت، ثم ادعى نفس الادعاء، وأن تحرير فلسطين يبدأ كذلك من الكويت. كيف يكون ذلك؟ إنها الغطرسة والكبرياء ونفاق الناس حتى يهتفوا باسمه وحتى يعلنوا له أنهم أهل الولاء لشعاراته

وأكاذيبه. وهكذا نجد المتاجرين كثيرًا بهذه القضايا والمتاجرين باسم الإسلام. هؤلاء جميعًا يكشفهم القرآن الكريم ويبين خطاياهم. إنهم جميعًا يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وفي أمثالهم يقول الله تعالى أيضًا: **(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا)**. إنه تصوير عجيب لمواقف هؤلاء جميعًا.

ثم إن هذا الصنف من الناس، هؤلاء المنافقين، إنما لهم أيضًا مناورات كثيرة. يجيدون المناورة والخداع بل ويتعالون على الناس ويستعلون على الناس ويظنون أن أحدًا لن يكشفهم بهذا التعالي. **(وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)**. ولذلك ورد أيضًا في القرآن الكريم: **(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس)**. إذا قيل لهم آمنوا الإيمان الحقيقي الذي اقتنع به وثبت عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، ماذا كان ردهم؟ **(قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء)**. يالها من وقاحة وسفاهة! هؤلاء يزعمون أنهم أهل العقل وأهل الحكمة وأن المؤمنين هم أهل السفاهة وأهل الحمق، وأنهم أهل الجهالة. فهم يتهمون هؤلاء الناس المؤمنين بأنهم سفهاء. إنها الوقاحة كما قلت، فإن السفهاء يتهمون غيرهم بالسفاهة، وهذا ليبرئوا ساحة أنفسهم من السفاهة والحمق والغفلة والجهالة.

كما نجد في الدنيا الكثيرين من أمثال هؤلاء. نجد الخونة في الدنيا يتهمون الأمانة بالخيانة، ونجد الكاذبين في الدنيا يتهمون أهل الصدق بأنهم الكاذبون، ونجد أهل الدنس وأهل القذارة يتهمون الأطهار بأنهم المذنبون. وهكذا يقلبون الأوضاع، لأن هؤلاء تجردوا من الإخلاص، فانقلبت موازين الحياة عندهم وانقلبت عندهم كل موازين القيم، وكل موازين الإخلاص والتجرد لله رب العالمين. **(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)**. ولا يكتفون بالخداع والتمويه والتغريب والغش والكذب، وإنما يضيفون إلى ذلك التآمر في الظلام مع أعداء الله عز وجل.

وذلك ما سنكشف النقاب عنه في درس آخر.

والله موفق والهادي إلى سواء السبيل.